

لا أمل لها بالاستمرار في أفغانستان «القاعدة».. هل تهاجر إلى أفريقيا؟

كثيراً ما كُتبت ورقة النعي لتنظيم «القاعدة» وسارع «خبراء» ليؤكدوا أنه انتهى ولن تقوم له قائمة.. لكن ما لبثت «القاعدة» أن وجهت ضربات في باكستان، أو في شمال أفريقيا أو العراق.. بل تجرأت على محاولة نسف طائرة ركاب أمريكية أو تدبير هجوم على هدف غربي. وهنا ألح معلقون على أنها تحولت إلى «شبكة» من مجموعات موزعة هنا وهناك ولدت من رحمها وتدين لها بالولاء. وبعد مقتل زعيمها المؤسس وغياب كثير من أقطاب جيل القياديين الأوائل، ها هو الحديث يتجدد عن تراجع جديد في حظوظ «القاعدة» قد يجبرها على الرحيل إلى شمال أفريقيا.

نك فيلدينغ *

تشير تقارير وردت من رجال استخبارات غربيين في الأشهر الأخيرة إلى أن «القاعدة» قد قُضي عليها قضاءً مبرماً في أفغانستان، ولم يبق منها على قيد الحياة سوى «حفنة من اللاعبين الرئيسيين فقط» معظمهم موجودون في باكستان في المناطق القبلية التي تدار فيدرالياً، وهي عبارة عن شريط واسع من الأراضي الوعرة والجبلية، التي لا تكاد تخضع لحكم محدد وتقع على طول الحدود الغربية مع أفغانستان⁽¹⁾. ورجح مسؤولون بريطانيون في أواخر ديسمبر/كانون الأول الماضي أن «ضربة أخيرة» خلال عام 2012 من شأنها بالتأكيد أن تدمر بقية قيادة «القاعدة» في باكستان وتفضي إلى مرحلة جديدة في المعركة ضد «الإرهاب الإسلامي». ويجادل هؤلاء المسؤولون بأن عدداً من كبار أعضاء التنظيم قتلوا نتيجة لحملة طائرات «وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية» (السي أي آيه) من دون طيار، ما وضع التنظيم الآن على حافة الانهيار.

هذه الأقوال ليست جديدة تماماً. ففي يوليو/تموز عام 2010 أفاد مدير الـ«سي أي آيه» حينذاك، ليون بانيتا، بأن عدد عناصر «القاعدة» المتبقين في أفغانستان كان «قليلاً نسبياً»⁽²⁾. وأضاف (في الغالب نبحت عن 50 إلى 100، وربما أقل.. إنهم في هذا الجوار. ليس هناك من شك في أن المكان الرئيسي لتنظيم «القاعدة» هو في المناطق القبلية في باكستان).

«دون طيار»

ثمّة من يقول إن السبب في إضعاف تنظيم «القاعدة» هو في الغالب ناتج عن حملة استهدفت أعضاء التنظيم بالطائرات دون طيار التي تديرها الـ«سي أي آيه» وتتحكم فيها. وعلى الرغم من أن طلعات الطائرات من دون طيار توقفت منذ منتصف نوفمبر/تشرين الثاني عام 2011، فليس هناك شك في أن هجماتها الصاروخية المميتة في تلك المنطقة أثرت تأثيراً خطيراً في قدرة «القاعدة» على التنظيم والعمل. وكانت المنطقة الشاسعة والمعادية التي تضمّ المناطق الجبلية في إحدى المرات مغلقة على أي نوع من الأعمال العسكرية. وقد واجهت الجيوش الغازية كمائن وهجمات بالقنابل في أراضٍ ذات تضاريس أتاحت فرصاً غير محدودة لتكتيكات الكرّ والفرّ.

لكن كل ذلك انتهى وطويت صفحته عام 2004 حين بدأت الـ«سي أي آيه» لأول مرة استخدام صواريخ محمولة على طائرات دون طيار في تحديد أهداف بشرية مهمّة ومهاجمتها. وعلى الرغم من أن الحملة لم تحظ بتعاطف شعبي كبير لدى الشعب الباكستاني، الذي يرى أنها أدت إلى موت العديد من المدنيين، فهي في الحقيقة قد أصبحت جزءاً ضرورياً من الحملة ضد المتطرفين الإسلاميين. كما أنه يجري نشر مثل هذه الطائرات الآن في مناطق أخرى، منها اليمن والعراق. لوضع هذه المزاعم في سياقها، ينبغي أن نعاين تأثير هجمات الطائرات الأمريكية دون طيار في «القاعدة» وحلفائها. ويمكن الاطلاع على قائمة يمكن الوثوق بها حول عدد القتلى أو من قُبض عليهم من أعضاء «القاعدة» في «موقع مجلة الحرب الطويلة»⁽³⁾. فقد وثّق بيل روجيو وألكسندر ماير لمقاتلين لقوا حتفهم بسبب هجمات الطائرات دون طيار، وقد استقيا معظم المعلومات في توثيقهما من كلمات التائبين التي تنشرها مواقع الجهاديين الراديكالية، التي يمكن الاعتماد عليها بشكل عام.

وجود مفاوضات لتسوية
سلمية تجزم حالياً
بين حركة «طالبان»
الأفغانية وقوات
التحالف، جعل مستقبل
«القاعدة» علمه المدمر
البعيد في المنطقة
في موضع شك



تشمل قائمة الذين قتلوا إلى جانب أسامة بن لادن عام 2011: أحمد عمر عبدالرحمن، نجل الشيخ الضرير القائد الروحي للجماعة الإسلامية المصرية النزيل في أحد السجون الأمريكية، وأبو مقداد المصري، عضو في مجلس شورى «القاعدة»، وعبدالرحمن اليمني، الذي كان متورطاً في شبكة «القاعدة» في العمليات الخارجية، وأبو حفص الشهري، وهو زعيم كبير شغل منصب رئيس العمليات في باكستان، وعطية عبدالرحمن، الذي كان رئيس أركان ابن لادن وقائد أولى العمليات، وإلياس كشميري، زعيم لاشكار آل زيل (عسكر الظل) التابع لـ«القاعدة»، وأبو زيد العراقي، الذي كان الضابط الأكبر المسؤول عن مالية تنظيم «القاعدة» في باكستان.

وتشمل قائمة القتلى ممن سقطوا في السنوات السابقة: أبا أمين، شيخ فاتح المصري، مصطفى أبو يزيد، صدام حسين الحسامي، عبدالحق تركستاني، عبدالباسط عثمان، جمال سعيد عبدالرحيم، منصور الشامي، عبدالله سعيد الليبي، صالح الصومالي، أبو موسى المصري، نجم الدين جلالوف، مصطفى الجزيري، طاهر يولداشيف، أسامة الكيني، شيخ أحمد سليم سويدان، أبو ليث الليبي، وغيرهم الكثير. وبالإضافة إلى ذلك، اعتقل العديد من الأعضاء البارزين في التنظيم بمن فيهم العقلاء المدبران لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001، خالد شيخ محمد ورمزي بن الشبية، وكذلك أبو زبيدة، وعبدالرحيم الناشري، ورضوان عصام الدين (الملقب بـ«الحنبلي»)، وأبو فرج الليبي ويونس الموريتاني.

أما الأعضاء البارزون في التنظيم الذين لا يزالون طلقاء فهم: زعيم التنظيم، الدكتور أيمن الظواهري، وسيف العدل، وهو مصري كان رهن الاعتقال لسنوات عدة في إيران، وأنس الليبي، وأبو يحيى الليبي، الذي فر من السجن الأمريكي في أفغانستان عام 2005، والأمريكي آدم غادان، الذي تحول إلى الإسلام. وهناك زعماء آخرون للتنظيم في العراق واليمن وشمال أفريقيا، ولكن القيادة الأساسية باتت عبارة عن فريق أضعف بكثير من القيادة الأولى التي ضمت جيل المؤسسين والرؤاد. وبالإضافة إلى هؤلاء، فإن مئات من المتطوعين ممن كلفوا مهام متواضعة بعد وصولهم من سائر أنحاء العالم للقتال ضد قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة في أفغانستان، قد قضاوا في هجمات الطائرات من دون طيار وفي عمليات القوات الخاصة. كما قتل مئات عدة من المقاتلين الباكستانيين بمن في ذلك شخصيات بارزة، مثل بيت الله محسود ونق محمد.

شمال أفريقيا جهة مفضلة

لقد كانت «المذبحة» ضد «القاعدة» كبيرة لدرجة جعلت العديد من مقاتليها الباقين يحاولون العودة مرة أخرى إلى الشرق الأوسط. ويعتقد أن اثنين على الأقل من كبار شخصيات «القاعدة» غادرا باكستان مؤخراً متجهين إلى ليبيا، مغتربين فرصة الفوضى التي تشهدها أجزاء من العالم العربي، وأوقف آخرون كانوا في طريقهم إلى المنطقة نفسها. ووفقاً لتصريح نقلته صحيفة «ذا أوبزيرفر» البريطانية عن مسؤول مطلع فإن «مجموعة شخصيات ذات خبرة كبيرة من شمال أفريقيا غادرت معسكراتها في مقاطعة كونار (شمال شرق أفغانستان) التي تمركزت فيها لسنوات عديدة، وعادت إلى الشرق الأوسط. وقد جرى إيقاف بعض هؤلاء ولكن آخرين قليلين تمكنوا من السفر». ويفضل آخرون التوجه إلى اليمن أو الصومال.

وحسب محطة «سي إن إن»، فإن من بين أولئك الأشخاص الذين غادروا باكستان إلى ليبيا، معتقلاً بريطانياً سابقاً كان وصل في مايو/أيار الماضي، ومنذ ذلك الحين بدأ تجنيد مقاتلين في المنطقة الشرقية القريبة من الحدود



انسحاب «القاعدة» من باكستان سيكون ضربة قوية للمنظمات التي تربطها بها تحالفات منذ سنوات عدة، مثل منظمة «حقاني» وفصيل «تحريك طالبان باكستان» المرتبط بحكيم الله مشهود



«طالبان» لن يهملها رحيل «القاعدة»

أما بالنسبة إلى حركة «طالبان» الأفغانية بقيادة الملا محمد عمر، فعلى الأرجح أنها لن تكون قلقة إزاء رحيل مقاتلي «القاعدة» الذين يغادرون المنطقة. ويشير كتاب جديد مؤلفه ألكس ستريك فان لينشوتين وفليكس كوين-كاتين يعيشان في قندهار وعلى دراية بالمناقشات التي تجري داخل حركة «طالبان»- إلى أنه لم يكن هناك اتفاق واضح أبدأً بين حركة «طالبان» وتنظيم «القاعدة». ويلقي كتاب بعنوان «العدو الذي أنشأناه: أسطورة الاندماج بين «القاعدة» و«طالبان» في أفغانستان 1970-2010» (هيرست 2012) ضوءاً جديداً على العلاقة بين التنظيمين، ويشير إلى الخلافات الحادة التي غالباً ما كان يتم تجاهلها، ليس أقلها مدارس الإسلام المختلفة التي ينتمون إليها. ويجادل المؤلفان بشكل مقنع بأن حركة «طالبان» لن تسمح لعلاقتها المتوترة مع «القاعدة» بأن تقف في طريق الدخول في مفاوضات لتسوية سلمية.

ليس من المرجح أن تشهد باكستان الكثير من التغيير على المدى القصير. فتتظيم «القاعدة» له وجود مهم في المنطقة وبوسعه توفير مبالغ كبيرة من الأموال. كما أن لديه الخبرة في الجماعات الجهادية المحلية، التي ترحب بالتنظيم وتحمي أعضائه حتى وهم يلاحقون حالياً بوساطة الصواريخ التي تطلقها الطائرات دون طيار.

على المدى الطويل، سوف يغادر كبار قادة التنظيم دون شك إذا تمكّنوا من العودة بشكل أو بآخر إلى الشرق الأوسط. فقائداهم فارق الحياة، كما أن فرص العودة إلى أيام إمارة «طالبان» في أواخر تسعينيات القرن الماضي ضئيلة جداً في الواقع، وهم يعتمدون دائماً على حسن نية مضيفيهم وأجهزة الاستخبارات الإقليمية. لكن رحلة العودة خطيرة، ومن الصعب التأكد تماماً من أنهم سيكونون أمنين عند وصولهم إلى الشرق الأوسط.

أما بالنسبة إلى بقية المقاتلين وأولئك الذين يختارون البقاء فمن المتوقع أن يعيشوا في المنطقة التي أصبحت الآن موطنهم الذي اختاروه، ويموتوا فيها.

□

* صحافي وكاتب بريطاني متخصص في قضايا الأمن

المصرية. ويقول التقرير إن لديه الآن 200 مقاتل جاهزين. وقد قيل إن هذا الشخص الذي يعرف بـ (AA) لأسباب قانونية، كان مقرباً من أيمن الظواهري منذ الثمانينيات. وبعد سفره إلى أفغانستان في مطلع التسعينيات انتقل لاحقاً إلى المملكة المتحدة حيث احتُجز لسنوات عدّة تحت الإقامة الجبرية. وغادر بريطانيا عام 2009 عائداً إلى مناطق باكستان القبلية.

مع وجود مفاوضات لتسوية سلمية تجري حالياً بين حركة «طالبان» الأفغانية وقوات التحالف، فإن مستقبل «القاعدة» على المدى البعيد في المنطقة بات في موضع شك الآن. ففي حين أن عدداً من المقاتلين سيقفون في المنطقة، خاصة أولئك الذين قدموا من آسيا الوسطى والذين ليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه، فمن المرجح أن من يستطيع الهرب منهم سيحاول ذلك الآن.

ومع ذلك، فمن الخطأ الاعتقاد أن جميع عناصر تنظيم «القاعدة» يتحركون الآن خارج باكستان. فالتنظيم له جذور عميقة في هذه البلاد. كما أن العديد من المقاتلين متزوجون من نساء من البشتون، أو أنهم استقروا مع عائلاتهم في المناطق القبلية. وفي الواقع، فعلى الرغم من تعرضها لضغوط كبيرة من الجيش الباكستاني، فإن الميليشيات الإسلامية تواصل حكم مناطق شاسعة دون مواجهة تحدّ. لذا فإن القوات الحكومية يمكنها فقط أن تعمل في تلك المناطق بتسيير قوات كبيرة العدد لا تقارب المسالك الرئيسية.

إن إعلان «القاعدة» أوائل يناير/كانون الثاني 2012 أنها لعبت دوراً رئيسياً في صياغة «شورى موحدة» جديدة تسمى (Shura-e-Murakbah) للإشراف على أنشطة الجهاديين في مناطق باكستان القبلية، يظهر أن التنظيم لا يزال يمارس قدراً من النفوذ. ووفقاً لتقارير من باكستان، فإن التنظيم الجديد قد أنشئ بإشراف أبو يحيى الليبي وعبدالرحمن السعودي، وهما شخصيتان رقيعتا المستوى في تنظيم «القاعدة». ونقلت صحيفة «دون» (Dawn) الباكستانية عن أبو يحيى الليبي قوله في اجتماع للمقاتلين الباكستانيين المنقسمين على نحو معروف «من أجل الله، انسوا كل خلافاتكم وقدموا لنا مقاتلين لدعم المعركة ضد أمريكا في أفغانستان»⁽⁴⁾. وإذا كان على «القاعدة» أن تسحب تماماً من باكستان، فإن ذلك سيكون ضربة قوية للمنظمات التي تربطها بها تحالفات منذ سنوات عدّة، فمنظمة «حقاني»، على سبيل المثال، لها مع «القاعدة» علاقات قوية جداً، مثلما لفصيل «تحريك طالبان باكستان» المرتبط بحكيم الله مشهود.

01. See, for example, Jason Burke's recent article in The Observer <http://www.guardian.co.uk/world/2011/dec/25/al-qaida-leadership-pakistan-africa?newsfeed=true>.

02. See <http://abcnews.go.com/ThisWeek/cia-director-panetta-exclusive-intelligence-bin-laden-location/story?id=11027374#.TWKb3reKmQ>

03. See <http://www.longwarjournal.org/pakistan-strikes-hvts.php>

04. See <http://www.dawn.com/201203/01/al-qaida-taliban-ask-pakistani-militants-for-help.html>